

11- البحث الحادي عشر

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب

بين المدونات الفقهية والمصادر التاريخية *

ذ. محمد الطوكي

الأمر بمقاصدها. قاعدة فقهية:

فتفتن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح
الشرعية والمقاصد،

بحيث تعرف ما ينبغي مراتب المعروف ومراقب المفكر حتى تقدم
أهمها عند المزاحمة.

ابن تيمية: اقتضاد الصراط المستقيم

"الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى، المختص بالعز الأحمى، الذي ليس
دونه منتهى ولا وراءه مرمى، بعث في العالمين رسولا من أنفسهم عربا
وعجما، وأزكاهم محتدا ومنمى، وفتح به أعينا عميا وقلوبا غلفا وآذانا صما،
صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى، وعلى آله وصحبه¹ وبعد:

ففي هذه الليلة المباركة، في هذه المدينة المنيفة، مدينة سيدي محمد بن
عبد الله²، الذي كان مولعا بها، حيث كان يرتادها إما مجاهدا دارنا عن هذا

* - محاضرة أقيمتها بطلب من وزارة الأوقاف، في مسجد للا أمانة بالصويرة بتاريخ 10 ربيع الأول 1400 هـ
موافق 11 أكتوبر 1990 زمن استوزار العلامة عبد الكبير المدغيري. وقد استقيمتها على ما كانت عليه
شاهدة على مكانها وظرفها. وقد أغنتها مناقشات معصية ودية من قبل العلماء المحترمين أعضاء فرع
المجلس العلمي آنذاك، وهم السادة شاكري محمد الإلغي ناظر أوقاف الصويرة، وبوهالي أحمد، والضعيف
محمد، ومحمد منكيط، والهدري أحمد، وفاضلي حميد، والراجي محمد، والمحامي السيد الناصري، ونظرا
لتراخي المدة، وشح الأخبار، فرحم الله تعالى من اختاره إلى جواره، وبارك في عمر من لازال على قيد
الحياة.

¹ - القاضي عياض: الشفا ص: 1.

² - أحمد بن خالد الناصري: الاستقصاء، دار الكتاب الدار البيضاء، ج 8، ص: 54-55.

البلد الأمين هجومات الأعداء، أو مستجماً بين ربوعها، مروحاً عما قد يعتري النفس من عناء المسؤولية وثقل الأمانة، وسواء في هذه الحالة أو تلك فقد كان يصطحب معه جماعة من علماء العصر، فيملي الأحاديث أو يسردوا منها بين يديه، ويخوضون في معانيها ويستكنهون بديع مبانيها، وغالباً ما يصنفون فيها بمقتضى إشارته وبوحي من توجيهاته، مسترشدين بما تزخر به مكتبته القيمة التي جلب لها عيون تحف الخزائن المشرقية، ونفائس طرف الغرب الإسلامي فاستلها ما من هذا المجد العريق والتاريخ العلمي التليد، اخترت الحديث إليكم في هذا الموضوع.

احتفال المغاربة بالمولد النبوي الشريف، بين المدونات الفقهية، والمصنفات التاريخية. وقبل معالجة فحواه، أتقدم بين يديه بكلمة تضيء بعض جوانبه.

1- المولد المقصود، هو مولد خير البرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ولا بأس بتقديم ديباجة موجزة، إذا المقام يقتضيها، فمن حيث نسبه صلى الله عليه وسلم:

فهو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن مصر بن نزار بن معد بن عدنان³ وقد ورد إجماع الأمة بالوقوف عند عدنان، وعدم رفعه إلى ما فوقه.

أما أمه عليه السلام، فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فهي تلتنقي معه صلى الله عليه وسلم في هذا الجد.

³ - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا مع آخرين، طبعة مصطفى البهي الحلبي ط II ، 1955، مج 1، ص: 1-2. سنل مالك عن الرجل يرفع نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم فكرة ذلك. انظر الروض الأتف للإمام السهيلي، دار المعرفة بيروت، 1978: 14/1-15.

يقول الإمام البوصيري عن هذا النسب الزكي في همزيته:
 لم تزل في ضمائر الكون تختا ر لك الأمهات والآباء
 نسب تحسب العلا بحلاه قلدتها نجومها الجوزاء
 حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء

- مكان ازدياده عليه السلام مكة، وتدعى أيضا بكة، وفي القرآن الكريم
 "الذي ببكة"⁴ وسميت كذلك لأنهم يتباكون فيها أي يزدحمون، فهي أم
 القرى: "ومعنى ذلك أنها كانت تعجم بخلق كثير. فوظائفها متعددة؛ دينية،
 سياسية، اقتصادية، ثقافية.

- تاريخ ميلاده عليه السلام: يوم الاثنين قرب طلوع الفجر لاثنتي
 عشرة ليلة خلت من ربيع الأول بعد وقعة الفيل بخمسين يوما⁵.
 أما عن الأب عبد الله فقد توفي عند أخواله بني النجار حيث ذهب يمتار
 لأهله، حدث ذلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم به حامل، ولما ولد عليه
 السلام كفله جده عبد المطلب، أما والدته عليه السلام فقد توفيت بالأبواء - بين
 مكة والمدينة - وعمر الرسول عليه السلام لم يتعد ست سنين "ألم يجدك يتيما
 فأوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى"⁶.

وإذا كان لي من تدخل في هذه المعطيات المتواترة في كتب السيرة
 النبوية فستكون في ناحيتين اثنتين.

1- التاريخ للولادة بعام الفيل.

2- الربيع؛ ربيع الأول.

1- بالنسبة للنقطة الأولى أجد أصحاب السير والمؤرخين، قد ربطوا
 ميلاده عليه السلام بالوضع الداخلي للجزيرة العربية من جهة، وبالأوضاع

⁴ - سورة آل عمران / 96.

⁵ - الإمام السهيلي: نفسه، ص: 184.

⁶ - سورة الضحى/ 8.

الدولية السائدة آنذاك من جهة ثانية. فالجزيرة العربية آنذاك ومكة بصفة خاصة، كانت كما يقول المؤرخون صرة الدنيا وقلب العالم القديم، وبعبارتنا المعاصرة كانت نقطة استراتيجية، إذ التوجه إلى الشرق الأقصى - الهند والصين - لا يتأتى إلا بعبور فيافيها تضل فيها القطا، ومن ثم فإن أطماع الدولتين العظيمتين آنذاك؛ وهما فارس والروم كانت تتناوش الجزيرة من شتى أطرافها بألوان متباينة من فنون التناوش. يقول ديودور الصقلي: "ولما كان العرب القاطنون في هذه البلاد لا ينالون في حرب، فقد ظلوا أحرارا أبدا، لا يستعبدهم مستبد، وأكثر من ذلك لا يقبلون قط رجلا أجنبيا عنهم سيذا، وهم لا يزالون يحتفظون بحرية لا تشوبها شائبة، فلم يقدر على استبعادهم آشوريو الزمان القديم، ولا ملوك ميديا ولا الفرس، ولا ملوك مقدونيا، ومع أن هذه الأمم قد جردت عليهم جيوشا جرارة، فإنها جميعا عجزت عن تحقيق غايتها"⁷ ولما أعى الروم مباشرة الهجوم بأنفسهم، إذ تكسرت شوكتهم غير ما مرة، عمدوا إلى تجريب طريقة غير مباشرة، حيث أوعزوا إلى الأحباش الانقضاض على الجزيرة من الجنوب: " فلم تكن وثبة الأحباش إليها بطلبتهم في سبيل أنفسهم، بقدر ما كانوا فيها برذعة للسلطان الروماني، بعد أن سدت في وجهه كل المنافذ من الشمال"⁸.

"ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول"⁹. أما العبرة من التاريخ بعام الفيل فتعني أن نبينا محمد عليه السلام مبعوث للخلق أجمعين عربيهم وعجميهم، ومن ثم لم تمض فترة وجيزة لا تعدو العقدين، وهذا في عمر الدول لا وزن له، حتى توحدت الجزيرة تحت راية

⁷ - نجيب البهيبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، مطبعة النجاح الجديدة، 1982،

ص: 9.

⁸ - نفسه: ص: 19.

⁹ - سورة الفيل / 1-5.

الإسلام، وأخذ صلى الله عليه وسلم يدعو القياصرة والكياسرة وغيرهم إلى الدخول في الإسلام، ويتوفى صلى الله عليه وسلم وسنابك خيل المسلمين تجلجل في مراكز عديدة من أرض الشام¹⁰.

ولم يفت البوصيري رحمه الله، أن يربط في همزيته بين المولد النبوي ومؤشرات الانقلاب الذي ستحدثه البعثة النبوية.

ليلة المولد الذي كان للـدين	سرور بيومـه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد	ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا	أية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه	كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا	ن لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان منه في طالع الكفر	وبال عليهم ووبلاء

2- الناحية الثانية من الخلاصات التي يمكن الوقوف عندها هي زمان ولادته عليه السلام، ربيع الأول وهي خلاصة ذات بعد جمالي، فكلمة ربيع ذات إشعاع إيحائي تبدى للعلامة ابن الحاج في عدة أوجه، ففي لفظة ربيع إشارة وتناول حسن من حيث اشتقاقه، وقد قال أبو عبد الرحمان الصقلي لكل إنسان من اسمه نصيب.

ومنها أيضا أن فصل الربيع أعدل الفصول وأحسنها، وشريعته صلى الله عليه وسلم أعدل الشرائع وأسمحها. كما أن الحكيم سبحانه أراد أن يشرف به الزمان الذي ولد فيه¹¹.

¹⁰ - تبوك، دومة الجندل، أسيلة ومعظم ساكنتها من المسيحيين.

¹¹ - جلال الدين السيوطي: الحاوي للفتاوي، دار الكتاب العلمية بيروت، ط2، 1975، ج1/197.

حكم الاحتفال بمولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: كثرت في

حكمه الأقاويل قديما مشرقا ومغربا، وقد استصحب متفقهة اليوم اجتهادات السابقين، فأضحوا بين مجيز محبذ ومستنكر مبدع، وانتقل هذا الأمر إلى عامة الناس الذين تداولوه في مجالسهم الخاصة، ويستفتون عنه أحيانا في حلقات الوعظ والدروس العامة. وهذا ما حدا بي إلى اقتحام غمار هذه الإشكالية بدل الازورار عنها، علما أن مثل هذه القضايا التي قد تبلبل الرأي العام، مما يتحتم على العلماء تناوله وحسمه إما ببيان الحكم بالنسبة للعامة، أو الحكم ودليله لمن هو أهله. وهكذا جاءت مداخلتنا مراوحة بين المنظور الشرعي والواقع التاريخي الحضاري.

وأشير إلى أن جل المصادر التي اعتمدناها في هذا البحث مغربية، والنصوص المتشهد بها والمحللة موجودة في كتب متداولة بين أيدي الناس.

قال أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي (ت790هـ) في فتوى له جاءت جوابا عن أوصى بثلاث ماله ليحبس على إقامة المولد: "معلوم أن إقامة المولد على الوصف والمعهود بين الناس بدعة محدثة، وكل بدعة ضلالة، فالإنفاق على إقامة البدعة لا يجوز، والوصية به غير نافذة، بل يجب على القاضي فسخه ورد الثلث إلى الورثة يقتسمونه فيما بينهم، وأبعد الله الفقراء الذين يطلبون إنفاذ مثل هذه الوصية"¹².

ولهذا النص رجع في كتاب المعيار للعلامة أبي العباس المعروف بالونشريسي (ت. فاس 914هـ¹³) وبين وفاته ووفاة الشاطبي قرابة قرن وربع.

وسنقف عند نص هذه الفتوى محللين بعض جوانبها.

¹² - أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي: فتاوى إمام الشاطبي تحقيق محمد أبو الأجفان، مطبعة الكواكب تونس، ط 3، 1987،

ص: 203-204

¹³ - الونشريسي: المعيار، طبعة وزارة الأوقاف المغربية 1981 ج 7/102.

1- وردت هذه النازلة في شأن الوقف على إقامة المولد، فتتزل حكم الوصية على حكم المولد، الذي اعتبره بدعة محدثة.

2- الحكم اجتهادي ظني، وذلك لعدم وجود نص صريح متعلق بحكم هذه النازلة بالذات.

3- مناط الحكم بعدم الجواز أنل إلى أسلوب الاحتفال وطريقته آنذاك في الأندلس وغيرها.

وقد بحثنا عن بعض المظاهر السلبية لهذا الاحتفال فوجدنا من بينها¹⁴:
- اختلاط الرجال بالنساء في الكتاتيب القرآنية.

- إرهاب أولياء الأولاد بمجموعة من التكاليف المادية التي تكون أحيانا عرقلة في سبيل مواصلة حفظ كتاب الله والتفقه فيه؛ كتكاليف الشمع الذي يستضاء به طيلة الليلة، ومنح معلم الكتاب قدرا من المال زيادة على الأجرة المعهودة والمتعارف عليها.

- إقامة المولد في البيوت ابتغاء استرداد مجموعة من الهدايا سبق للمحتفل أن طيب بها خواطر مدعويه، ومخافة أن يتقادم عليها العهد ويمحوها تعاقب الزمان، يصبح المولد مناسبة سانحة لتصفية مثل هذه الحسابات.

4- النص يشي بالصراع الدائر آنذاك في (ق 8هـ) بين الفقهاء والمنقرة أي دعاة التصوف، يقول "أبعد الله الفقراء"، وللشاطبي معهم جولات. يقول في الاعتصام: "ونسبت إلى معادة أولياء الله، وسبب ذلك أنني عادت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة المنتصبين بزعمهم لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم¹⁵".

¹⁴ - الونشريسي: نفسه: ج 252/9، انظر أيضا الحاوي للفتاوي 195/1 وابن الحاج في المنخل.

¹⁵ - الشاطبي: الاعتصام؛ دار المعرفة، بيروت، دت، الجزء الأول، ص: 28.

ويصف الشيخ أبو عبد الله الحفار الغرناطي (ت 811هـ) تلك الليلة التي تقام على طريقة الفقراء بقوله: "وطريقة الفقراء في هذه الأوقات شنة من شنع الدين، لأن عمدتهم في الاجتماع إنما هو الغناء والشطح، ويقررون لعوام المسلمين أن ذلك من أعظم القربات وأنها طريقة أولياء الله، وهم قوم جهلة لا يحسن أحدهم أحكام ما يجب عليه في يومه وليلته، بل هم ممن استخلفهم الشيطان على إضلال عوام المسلمين إذ يزينون لهم الباطل، ويضيفون إلى دين الله ما ليس منه، لأن الغناء والشطح من باب اللهو واللعب، وهم يضيفونه إلى أولياء الله، وهم يكذبون في ذلك عليهم؛ ليتوصلوا بذلك إلى أكل أموال الناس بالباطل، فصار التحبيس عليهم ليقيموا بذلك طريقتهم تحببسا على ما لا يجوز تعاطيه فيبطل¹⁶".

5- إن ظروف الأندلس التاريخية التي احتفت بهذه الفتوى، فتوى الشاطبي، كانت في غاية التفسخ والانحلال، تكفي الإشارة إلى أن مملكة غرناطة كانت آخر ما تبقى بيد المسلمين من أراضي الأندلس، وأصبحت هذه المملكة مثابة لكثير من مسلمي الأندلس، وعلماء العصر الذين كانوا ينزحون عن مواطنهم كلما استولى النصارى على شيء منها. ولعل الإمام الشاطبي أراد بمثل هذه الفتوى أن يقطع الطريق على بعض التيارات الانتهازية والمتخاذلة التي كانت الأندلس تعج بها، وأن يوجه المحسنين وذوي النيات الطيبة إلى مجالات أجدر وأهم، خصوصا والعدو الصليبي يتربص بدولة بني نصر الدوائر. "ويستحب لابن هذا المحبس أن يصرف هذا الأصل إلى باب آخر من أبواب الخير الشرعية¹⁷".

هذه الملابس السياسية والاجتماعية التي أنتجت هذه الفتوى، فهل تغير الظروف وانتفاء تلك العلل، جدير بنقل الحكم من الحرمة إلى الحلية. إن بيدنا

¹⁶ - فتاوى الإمام الشاطبي: انظر الإحالة رقم 192 من ص: 203-204.

¹⁷ - نفسه: نفس الإحالة من نفس الصفحة.

فتاوى على النقيض مما قدمنا، تجيز الاحتفال بالمولد النبوي وتدعم مصداقيته وشرعيته بجملة من الأدلة منها ما هو نقلي وما هو عقلي، وخير مثال على ذلك فتوى لشخصية علمية شهيرة معاصرة للونشريسي، ونقصد بها العلامة الطلعة مجتهد ق 10 هـ الإمام السيوطي رحمه الله مؤلف "رسالة حسن المقصد في عمل المولد" ¹⁸ التي اشتملت بالإضافة إلى منحها الشرعي على معلومات طبية تاريخية واجتماعية وثقافية، وقد عمد فيها إلى إبطال ما جاء في كتاب "المورد في الكلام على عمل المولد" للشيخ تاج الدين عمر بن علي اللخمي السكندري المشهور بالفاكهاني من متأخري المالكية قال السيوطي في ديباجة رسالته: "إن أصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن، ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وما وقع في مولده من الآيات، ثم يمد سماط يأكلونه وينصرفون، من غير زيادة على ذلك، هو من البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها؛ لما فيه من تعظيم قدر النبي عليه السلام، وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف" ¹⁹.

وكما توقفنا عند النص السابق بالتحليل فنفس الدين سيكون مع نص السيوطي.

اعتبر السيوطي الاحتفاء بالمولد، البعيد عن كل ما ينكره الشرع، بدعة حسنة. وحينئذ فما البدعة في اللغة واصطلاح الفقهاء؟ وما هي أقسامها؟ ومتى تنعت بالحسن؟

البدعة في اللغة هي الاختراع. وفي العرف الشرعي؛ إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹⁸ - السيوطي: الحلو 1/189

¹⁹ - السيوطي: الحلو 1/189

ومن الأمور الطبيعية أن تعاقب الزمان وكر الليالي، واحتكاك الشعوب والأمم وتفاعل الحضارات، وأطراد المستحدثات، كل ذلك يؤدي إلى أن يمس عامل التطور والتغيير مختلف مظاهر الحياة.

وهذا التجديد يعتبر ابتداءا إذا ما قورن بالأوضاع السابقة عليه. ثم إن هذه المعطيات الطريفة والجديدة سطحية كانت أو عميقة، لا يمكن أن نتعسف بالحكم عليها بالحرمة أو الكراهة جملة وتفصيلا، "لأن البدعة لم تنحصر في الحرام أو المكروه، بل قد تكون أيضا مباحة ومندوبة وواجبة. قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات؛ البدعة في الشرع هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي منقسمة إلى واجبة ومحرمة ومندوبة ومكروهة ومباحة"²⁰. وهذا ما ذهب إليه القرافي وشيخه سلطان العلماء العز بن عبد السلام²¹. وقال العلامة محمد بن جيب الشنقيطي في كتابه "شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم": قد نص علماء السنة من المحدثين والأصوليين وفقهاء المذاهب على أن قوله صلى الله عليه وسلم - كل بدعة ضلالة- من العام المخصوص؛ بما تقدم من أن البدعة تنقسم إلى الخمسة الأقسام المذكورة" ثم قال وبما قررناه من كون حديث - كل بدعة ضلالة- عاما مخصوصا يعلم بالبديهة أن البدع المستحسنة شرعا لا يتناولها هذا الحديث، أي حديث كل بدعة ضلالة، وشبهه كحديث - من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، بل هي داخلة في ضمن حديث مسلم الذي أخرجه في صحيحه بروايات عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها. الحديث فهو مخصوص لعموم حديث وكل بدعة ضلالة"²².

²⁰ - نفسه: 1/192.

²¹ - الشاطبي: الاعتصام 1/188 وما بعدها، قال الشاطبي "ويسط نك القرافي بسطا شافيا، وأصل ما أتى به من نك

شيخه عز الدين بن عبد السلام".

²² - محمد بن علوي المالكي: باقة عطرة، ط 1، 1983، ص: 29.

أدلة أخرى لمجوزي الاحتفال بالمولد:

1- إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التي مضت وانقضت، فإذا دخل الزمان الذي وقعت فيه كان فرصة لتذكرها وتعظيم يومها، قال الحافظ أبو الفضل أحمد بن حجر: "وقد ظهر لي تخريجها - أي الاحتفالات بالمولد - على أصل ثابت، وهو ما ثبت في الصحيحين من أن النبي صلى الله عليه وسلم، قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا يوم أغرق الله فيه فرعون، ونجى موسى، فنحن نصومه. فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما من به في يوم معين من إبداء نعمة أو دفع نقمة، ويعاد ذلك في نظير ذلك من كل سنة، والشكر لله يحصل بأنواع العبادة، كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة، وأي نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبي، نبي الرحمة في ذلك اليوم. وعلى ذلك فينبغي أن يتحرى اليوم بعينه حتى يطابق قصة موسى في يوم عاشوراء، ومن لم يلاحظ ذلك لا يبالي بعمل المولد في أي يوم من أشهر السنة، بل توسع قوم فنقلوه إلى يوم من أيام السنة وفيه ما فيه²³."

2- ولا يرى ابن تيمية أي مانع من فعل المولد ما دام بمبعدة عن السلبات المتقدمة، وما دام مناسبة للمزيد من التفقه في السيرة النبوية، وصلة الرحم والتوسعة على العيال والإنفاق على المحاويج، ومن هذه الجهة ظهر له أنه قد يثاب على فعل المولد²⁴.

3- فتوى للعلامة العارف بالطريقة والحقيقة أبي عبد الله بن عباد في حكم المولد وما يقع فيه من وقود الشمع وغير ذلك حيث قال: "الذي يظهر أنه - أي المولد النبوي - عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما

²³ - السيوطي: الحاوي، 1/196

²⁴ - باقة عطرة، ص: 12-13 فقد أورد نصا لابن تيمية من كتابه اقتضاء الصراط المستقيم تحقيق عصام الدين الصباطي:

"فتعظيم المولد اتخاذ موسما قد يفعله بعض الناس، ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصده وتعظيمه لرسول الله صلى

الله عليه وسلم" طبعة دار الحديث، القاهرة، 2003، ص: 254.

يقتضيه الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشموع وإمتاع البصر وتنزه السمع والنظر، والتزين بما حسن من الثياب، وركوب فاره الدواب، أمر يباح ولا ينكر، قياساً على غيره من أوقات الفرح²⁵.

4- في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تعبير عن الفرح والسرور بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، وفي نظر من يحتج بالرؤيا، فقد انتفع به الكافر، فلم لا يحتفي به المومن. قال الحافظ شمس الدين بن الجزري في كتابه "عرف التعريف بالمولد الشريف" ما نصه: "قد رأي أبو لهب بعد موته في النوم، فقيل له ما حالك؟ فقال في النار، إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنتين، وأمس من أصبعي ماء بقدر هذا، وأشار لقدر أصبعه، وأن ذلك بإعتاقي لثوبية عندما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وبارضاعها له. فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم فما حال المسلم الموحد من أمة النبي صلى الله عليه وسلم يسر بمولده، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته صلى الله عليه وسلم، لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضل جنات النعيم"²⁶.

- وخلاصة القول إن للملابسات التاريخية فعلها العميق في ظهور متواليات من الأحداث، كحدث الاحتفال بالمولد، كما أن لها دورها في تنوع الأحكام التي تنتزل على ما جد من النوازل. إننا نميز بين النصوص القطعية الثبوت والدالة دلالة قطعية والتي لا اجتهاد فيها.

والاجتهاد إنما يكون
في كل ما دليله مطنون
إما الذي دل عليه قاطع
فهو كما جاء ولا منازع.

²⁵ - الونشريسي: المعيار ج 288/11، وللقارئ أن يسترسل في هذا الموضوع لغاية ص: 289.
²⁶ - الحاوي/ص: 196. ونرى أنه لو اعتبر المسلمون اليوم بالهجمة الشرسة التي شنت على نبي الرحمة من قبل من لا يقدرونه حق قدره، لا تخذوا من كل يوم مناسبة لدراسة سيرته عليه السلام، والتفقه فيها والتعريف بقيمتها ومزاياها
وفضلها على الإنسانية جمعاء. وعلى كل حال "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين".

ويندرج ضمنها تلك القواعد الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، والتي تحمي البشرية من طوفان الرغبات الجامحة، والأنانية المفرطة والأطماع الرهيبة التي تجتاح حقوق الآخرين. ونميز من جهة أخرى بين تلك القواعد المرنة التي تتلاءم وتتناسب مع تغير الزمان والمكان، فهي أحكام اجتهادية متأثرة بالظروف. وعلى من يتناول قضية المولد ألا يجرده من ملابساته ومن الوقائع والظروف المحيطة باستحداثه، وعليه أن يتيقن أن الفترة التي استحدث فيها المولد تندرج في عز الحروب الصليبية، وأنها بل في كل آن ما أحوج الناس إلى التأسي بسيرة المصطفى عليه السلام.

الاحتفال بالمولد النبوي:

بعد هذه الجولة في كتب الفقه والنوازل التي قادتنا إلى استحسان مجموعة من المجتهدين لظاهرة الاحتفال البريء، من التشويه والشعوذة والمنكرات، بالمولد النبوي. ننتقل الآن إلى الجانب التاريخي المتواشج مع الجانب الشرعي إن لم نقل هو تقرير له. وسأقتصر على الاحتفال بهذا المولد الشريف في الديار المغربية، اللهم إلا إذا دعت الضرورة التاريخية إلى الإشارة واللمع الخاطف إلى مجريات الاحتفال بهذه المناسبة في المشرق.

إن البدايات الأولى للاحتفال بالمولد النبوي كانت في زمن الفاطميين، حيث كانوا يحتفلون به ضمن ستة مواليد؛ مولد الرسول الأكرم صلوات الله عليه، ومولد آل البيت عليهم السلام؛ علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وفاطمة الزهراء، والسادس من مولد الخليفة الحاضر²⁷.

وينسب السيوطي هذه البداية إلى أمير إربل العراقية، الملك أبي سعيد مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي صهر صلاح الدين. (ت 630هـ/1232م) قال عند ابن كثير في تاريخه: "كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل به احتفالاً هائلاً، وكان شهماً شجاعاً بطلاً عاقلاً عالماً

²⁷ - المقرئزي (ت 845 هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار مطبعة الساحل الجنوبي، لبنان، 389/2، وفيه تحدث عن مجموعة من الأيام والطقوس التي كان الفاطميون يحتفلون بها.

عادلا، رحمه الله، وأكرم مثواه، وقد صنف له الشيخ أبو الخطاب بن دحية²⁸ مجلدا في المولد النبوي سماه "التتوير في مولد البشير النذير" وقد طالت مدته في الملك إلى أن مات وهو محاصر للفرنجة بمدينة عكا سنة 630هـ - محمود السيرة والسريرة²⁹.

وبخصوص مكة المكرمة، يذكر الرحالة ابن جبير في عام 579هـ، أن مناسبة المولد النبوي كانت تتميز بفتح أبواب الكعبة المشرفة في يوم الاثنين من ربيع الأول ليومها الزوار، وقد ظل هذا التقليد متبعا لغاية القرن 7هـ³⁰.

الاحتفال بالمولد النبوي داخل المغرب:

أ- في العهدين العزفي والموحدي:

أول من دعا إلى الاحتفال به في المغرب قاضي سبتة أبو العباس أحمد بن القاضي محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي (ت 633هـ/1236م). وقد تحدث في مصنفه - الدر المنظم في مولد النبي المعظم - إلى أن الداعي الذي دعاه إلى انتداب الناس للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، هو دأب مسلمي الأندلس وسبتة على إقامة الاحتفالات بأعياد اليهود والنصارى، كاحتفالهم بالنيروز³¹ والمهرجان³² وميلاد السيد المسيح³³. يقول في مطلع مصنفه: "وإن تعجب أيها الناهج لنفسه، فعجب من إحصائهم لتواريخهم والاعتناء بمواقيتهم؛ فكثيرا ما يتساعلون عن ميلاد عيسى، على نبينا وعليه السلام، فما أعانهم التوفيق، ولا القرين المرشد، ولا الرفيق، أن يكون سؤلهم عن ميلاد نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، خيرة الله من خلقه، وذلك من شكر الله علينا بعض واجبه وحقه، هاديه من ضلالتهم ومرشدهم من غيهم، العزيز عليه عنتهم،

²⁸ - ابن دحية: هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي ابن نحية الكلبي السبتي، صاحب المطرب، زار إربل سنة 604 هـ وتوفي بمصر (ت 633 هـ).

²⁹ - الحاوي للفتاوى: 1/189

³⁰ - محمد المنوني: المولد النبوي الشريف في المغرب المريني، مجلة دعوة الحق المغربية العدد الأول السنة 12 نونبر 1968 ص: 117، عن رحلة ابن جبير، مطبعة السعادة، مصر، علم 1908، ص: 87-88.

³¹ - أول يناير، حسب التقويم الجريجوري، ويوافق 7 ميلاد المسيح عليه السلام.

³² - العنصرة: ذكرى مولد يحيى عليه السلام، 24 يونيو.

³³ - ميلاد المسيح: 25 لجنبر.

الحريص على هديهم، الشديد عليه ضلالتهم وفتنتهم، الرؤوف الرحيم، شفيعهم الذي ضوعف له به ثواب محسنهم، وتجاوز عن مسيئتهم، بل جماهير عامتهم ودهمائهم، بل الذين يدعونهم بطلبتهم، وعلمائهم لا يعرفونه ولا يتعرفون³⁴.

وهكذا نجده يلفت نظر معاصريه إلى الاعتناء بالمولد النبوي الشريف متوخيا من ذلك مقاصد نبيلة، ولا جدال في مصداقيته فهو القاضي العدل ذو الدراية بالمصالح والمفاسد والحسن من البدع والمستقبج. وإشاعة هذا التقليد وإذاعته، اتخذ أسلوبا إعلاميا طريفا، حيث أخذ يتردد على الكتاتيب القرآنية بسبته، يشرح لصغار الأولاد مغزى هذا الاحتفال، وقد تغنى من وراء ذلك إيصال هذه الرسالة إلى فضاء واسع مغلق لا يتأتى له النفوذ إلى مساربه ومataهاته؛ إنه فضاء الحريم مربى الصبية الأول، حيث تترسخ القيم والمبادئ، وتنزل إلى لا شعور الصغار، فلا يجدون الراحة والتوازن النفسي، عندما يشبون عن الطوق - إلا بإتيان ما وقر في شعورهم، لقد أراد للمولد أن يكون من تلك القيم الثابتة التي يربو فيها الصغير ولا يتحاشاها الكبير. كما دعا إلى تعطيل قراءة الصبيان يوم المولد.

ويأخذ ابنه أبو القاسم محمد العزفي على عاتقه مواصلة مشروع أبيه، فيعمد إلى شرح كتاب والده؛ الدر المنظم، وقد أخرجه في نسختين صغيرى وكبرى ويميز في هذه الأخيرة كلام والده، فيترجم عليه بقوله "قال المؤلف" ثم يعنون زيادته بكلمة قلت³⁵. ويعتبر عمل أبي القاسم هذا أسلوبا من أساليب الدعاية للمولد وإشاعته في الناس، وزاد فأهدى للخليفة الموحي عمر المرتضى كتاب "الدر المنظم" والتمس منه المساهمة في هذه المأثرة، "فصار هذا يقوم بليلة المولد النبوي بمراكش، ويحتفل لذلك احتفالا كان يفيض فيه الخير والإنعام³⁶".

³⁴ - أبو العباس أحمد العزفي: الصفحة الأولى من الدر المنظم في مولد النبي العظيم، انظر محمد المنوني، نفس الإحالة السابقة، وفيها ذكر نسخ الدر الثمانية وعين أمكنها وأرقامها وحالاتها، ص: 118-119.

³⁵ - انظر محمد المنوني، في نفس المقال السابق، ص: 118.

³⁶ - نفسه، ص: 119، وهو عن البيان المغرب.

ويصبح أبو القاسم محمد العزفي أميراً على سبّعة بعد أن دالت دولة الموحدين يذكر ابن الخطيب أن رئاسة آل العزفي لسبّعة بدأت في سنة 647هـ، حين قامت بها الثورة ضد الموحدين، وانتهت باختيار قاضيها وكبير علمائها أبي القاسم محمد بن أحمد العزفي، واستمرت رئاسة أبي القاسم لسبّعة، وأحياناً طنجة وأحوازها حتى وفاته 677هـ وخلفه في إمارة سبّعة ولده عبد الله أبو طالب واستمرت رئاسته حتى استولى بنو مرين على سبّعة سنة 705هـ³⁷. وبهذه الإمارة سيتسنى لأبي القاسم تثبيت الاحتفال بالمولد، بالقرار السياسي، والإصلاح التربوي، والنمط الاحتفالي. وهذا ابن عذارى المراكشي يصف احتفال أبي القاسم العزفي بالمولد النبوي قائلاً: "ومن مآثره العظام، قيامه بمولد النبي عليه السلام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام، يؤثر على أولادهم ليلة المولد السعيد بالصرف الجديد³⁸ من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر والصنائع والحوانيت، يمشون في الأزقة يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام، جار ذلك على الدوام في كل عام من الأعوام³⁹".

مظاهر الفرحة بهذه المناسبة تجري وفق لبروتوكول على الشكل الآتي:

- 1- هناك الاحتفال الخاص بالأمير وحاشيته.
- 2- إطعام عام بألوان الطعام يتسع للخاص والعام.
- 3- اتخاذ ذلك اليوم يوم عطلة يسرح فيه صبية المدارس، وتعطل سائر الصنائع والمرافق.

³⁷ - انظر الإحاطة لابن الخطيب ج3، ونفح الطيب ج7.

³⁸ - يقصد عملة جديدة تسك حصيصاً لهذه الليلة.

³⁹ - ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب - قسم الموحدين - تحقيق محمد إبراهيم الكتاني مع آخرين، دار الثقافة، البيضاء، ط I، 1985، ص: 398.

- 4- يصرف فيه لصغار الكتاتيب عملة جديدة تسك بهذه المناسبة تطيبها لخطيرهم، وتوسعة على أوليائهم.
- 5- يطوف في ذلك اليوم الصغار والشبان في السكك والأزقة مصلين على المصطفى عليه السلام.
- 6- ينشد فيه المسمعون في المساجد والزوايا قصائد في المديح النبوي⁴⁰.

وقد ساعد هذا المناخ على ازدهار شعر المديح النبوي "وكان من أسباب ذلك أيضا الحالة النفسية التي آل إليها الغرب الإسلامي بعد سقوط قواعد الأندلس، واختلال أمر الموحدين، وقد جاء التلويح لهذه الحالة في الرسالة الحجازية التي بعث بها الأمير أبو زكرياء الحفصي إلى الحضرة النبوية الكريمة، حيث ورد فيها: وقد آوى كثير من بلاد الإسلام إلى نمة الصليب، ولم يأخذ أهلها من الرأي والقناة بصليب⁴¹".

ب- في العصر المريني:

التزم المرينيون بإقامة المولدات بفاس ابتداء من مؤسس الدولة يعقوب ابن عبد الحق، مروراً بابنه يوسف الذي عمم هذا الاحتفال في سائر بلاد المغرب، وقد أضاف أبو سعيد الأول ابن يوسف إلى الاحتفال بالمولد الاحتفال بسابعه، وقد اكتملت هذه الاحتفالات، وأخذت طابعها الكامل في زمن أبي الحسن المريني الذي لم يترك هذه الاحتفالات حضراً وسفراً، ومن ذلك أنه أقام ليلة المولد بتونس بحضور علمائها ومشايخها.

⁴⁰ - أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول عليه السلام، وما قيل بعد الوفاة في الاصطلاح النقدي يسمى رثاء، ولكنه بالنسبة للرسول يسمى مديحاً. انظر زكي مبارك - "المدائح النبوية في الأدب العربي"، ص: 17.

⁴¹ - محمد المنوني: ملاحم ودواوين في السيرة والمديح النبوي، مجلة دعوة الحق السنة 9، ع: 9-10، 1966، ص: 97-98.

وعن الأسلوب السلطاني الخاص بهذه الاحتفالات يقول ابن مرزوق في المسند الصحيح عن طريقة إحياء أبي الحسن المريني لها: "حتى إذا دخلت الليلة، وأدى السلطان صلاة المغرب وناقلتها، قصد إلى مجلسه في مكان الاحتفال، حيث يستدعي للجلوس حسب مراتبهم، ويأخذون المجالس على طبقاتهم، فينتظمون في أحسن زي، وأجمل إشارة، ثم يعد الطعام على ترتيب مخصوص، يتلوه من الفواكه الطرية ما يوجد في إبانته، وبعدها يوتي بالفواكه اليابسة، ثم الكعك والحلويات، وأخيرا ألطاف السكر، وجميع ذلك على أعجب ما يتحدث به كثرة وحسنا، وربما اختلفت العادة في التوالي مرة، وفي الفترة أخرى، وقد يقع الإطعام بعد العشاء الآخرة.

فإذا استوت المجالس، وساد الصمت، قام قارئ العشر فرتل حصة من القرآن الكريم، ويتلوه عميد المنشدين فيؤدي بعض نوبته، ثم يأتي دور قصائد المديح والتهاني بليلة المولد الكريم، من نظم شعراء المملكة والزائرين... وبعد هذا تسرد المعجزات النبوية؛ وتكثر الصلاة على الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب، فإذا قضيت صلاة الصبح تقدم ألوان الطعام المختصة بهذا الوقت، وجميع ما يفضل من بخور وشموع يقتسمه الفقراء والمسافرون على قدر استحقاقهم، فيجتمع لهم من ذلك العدد الكثير⁴².

وقد انضاف إلى ما تقدم من بروتوكول الاحتفال العناية بتجميل مكان الاحتفال بما ستحدثه المغاربة من آلات ميكانيكية دقيقة، فمن ذلك: "جهاز لمعرفة الأوقات الليلية، يحف بها اثنا عشر طاقا يعلوها شكل هلال يدور عليها، وفي داخل كل طاق صورة جارية، فإذا حلت الساعة المعينة، أعلن عنها الطائر الجاثم على الساعة بواسطة صنجة، يلقيها إلى طست، فتبرز

⁴² - محمد المنوني: المولد النبوي الشريف، المغرب، ص: 120.

جارية في يمانها رقعة بالساعة المعينة لتضعها بين يدي أبي عنان، بينما تجعل يسراها على فيها كالمبايعة⁴³.

وفي هذه الفترة انتقلت ظاهرة إحياء المولد إلى كل من تونس زمن دولة أبي يحيى الحفصي، والجزائر على عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني. وإذا كان الانتقال قد أخذ طريقه إلى هذه الدول على سبيل الاستحسان أو الاستهزاء، فإن هذا التقليد الطيب الذي ترسخ في وجدان المغاربة حتى غدا من قبل الأعراف المتحكمة، جعلهم إذا ارتحلوا إلى أفق، خارج الغرب الإسلامي لا يعبر لهذه المناسبة اهتماما، وجدتهم يحتفلون به، وكأنهم في بلدهم، ويتلطفون في تحسين الاحتفاء لدى من لا يرى ذلك.

فهذا أبو الطيب محمد بن إبراهيم نزيل قوص (- 695هـ) يقول عنه هـ الأدفوي: وحكى لي صاحبنا العدل ناصر الدين محمد بن العماد محمد: أنه - أبا الطيب - كان يجتاز بالفقيه عثمان، باليوم الذي فيه مولده صلى الله عليه وسلم فيقول: يا فقيه هذا يوم سرور، اصرف الصبيان فيصرفنا⁴⁴.

ح: في العهد السعودي:

ازدادت الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف في العهد السعودي تألقا، وخاصة في فترة المنصور الذهبي، ولمس ذلك التألق مختلف مظاهر الحضارة المغربية، وقد وصفت وصفا دقيقا في مجموعة من مصادر تلك الفترة؛ في مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء لعبد العزيز الفشتالي، وفي روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس للمقري وغيرهما.

⁴³ - نفسه، ص: 121.

⁴⁴ - نفسه، ص: 129-130.

ومن نماذج المولديات التي أشادت بحضرة المنصور الذهبي قصيدة العلامة الحجة القدوة المحقق المجتهد مفتي الحضرة المراكشية وشيخ أعلامها أبو مالك سيدي عبد الواحد الشريف:

أسمى النبيئين قدرا غير مزدحم	قدما به بشرت أخبار أحبار
وأفضل الرسل الشم الذين مضوا	في مدد قد خلت قبل وأعصار
هم النجوم وخير الخلق بدرهم	شتان بين أنجم وأقمــــار
لئن تأخر عنهم بعثة فلقــــد	خص قديما بأسرار وأسرار ⁴⁵ .

ويقول نفس المصدر عن مولديات المنصور الذهبي: "وما قيل في الموالد النبوية التي احتفل لها الخليفة، المنصور الذهبي، كثير لا يمكن حصره... فإذا فرغ الفقهاء من إنشاد قصائدهم، أتى بأنواع الطعام الذي لم يسمع قط بها، فإذا قضى الناس أربهم منها رفعت، وأتى بغيرها، ويوتى في آخر ذلك بالكوامخ ونحوها التي من شأنها أن تستعمل أخيرا، فإذا فرغ منها أتى بصحاف كبيرة يحمل الواحدة منها جماعة كثيرة من الرجال فيها اللوز المقشر بالسكر فيأكلون، ... ومولانا على أريكة ملكه، وهم بمرأى منه ومسمع، فإذا قضوا أربهم من ذلك، شرع نصره الله في الدعاء، والناس يؤمنون على دعائه بنيات صادقة، ثم ينصرفون وكلهم شاكر آلاءه⁴⁶."

فعن أثر هذه الاحتفالات على الصناعة المحلية وخاصة صناعة الشموع والثريات، والشمعدانات "الحسك" يقول المقرئ: "ومن عادته - المنصور الذهبي - نصره الله في الميلاد النبوي، أنه تصنع له شموع أعظم من الأسطونات، يطاف بها في البلد ومعها الآلات، وجميع أهل الحضرة قد جاءوا لينظروا إليها، وذلك اليوم الذي يطاف بها عيد عظيم عندهم، وحق لهم ذلك."

⁴⁵ - المقرئ: روضة الآس العطرة الأنفاس، المطبعة الملكية، ط 2، 1983، ص: 3-4.
وقد استوحى الأستاذ ابراهيم الهيلالي في ملحمة مراکش، من هذه المولديات مواقف رائعة سجلت بطولات المنصور الذهبي وملاحمه وأثر ذلك على المغرب عامة ومراكش بصفة خاصة.

⁴⁶ - نفسه، ص: 13.

فإذا وصلوا بها إلى قصر الخلافة أدخلوها إلى المشور العلي، وقد اتخذت لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصنعة، فتجعل على تلك الآلات، فتري صعدا في السماء كالمنارة⁴⁷.

أثر تلك الاحتفالات في الموسيقى:

في هذا العصر عني عرفاء المسمعين وجهابذتهم بتلحين المولديات حسب طبوع الموسيقى الأندلسية التي كانت تتشد بين يدي المنصور الذهبي، أما احتفالات المتصوفة فقد جمعت بين الملحون والمغرب، يقول عبد العزيز الفشتالي: "... واندفع القوم لترجيع الأصوات بمنظومات على أساليب مخصوصة في مواسم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، يخصها اصطلاح العرف باسم المولديات، نسبة إلى المولد النبوي الكريم، وقد لحنوها بالحنان تجلب النفوس والأرواح، وترف لها الطباع، وتبعث في الصدور الخشوع، وتقشعر لها جلود الذين يخشون ربهم، يتفنونون في ألحانها حسب تفننها في النظم⁴⁸."

الاحتفالات بالمولد النبوي في عهد الدولة العلوية:

إذا كانت احتفالات الدولة السعدية، التي يرفع خصومها نسبها إلى مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم حليلة السعدية، قد بلغت الحد الذي قدمنا شذرة منه، فإن دولة الأشراف العلويين العائدة إلى العثرة النبوية، والمتأصلة نسبا في الدوحة المحمدية الشريفة، قد احتفلت بمولد خير البرية احتفالا جملوه بالمزيد من التحسينات فأربى على كل ما تقدم، وقد فصل مؤرخ الدولة العلوية عبد الرحمان بن زيدان مظاهر تلك الحفاوة والتقاليد في كتابه "العز والصولة

⁴⁷ - نفسه، ص: 13.

⁴⁸ - الفشتالي: مناهل الصفا، تحقيق الدكتور عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية، 1972،

ص: 237، وفيه فصل

مطول عن الاحتفال بالميلاد الكريم.

في معالم نظم الدولة". وقد انعكست معالم تلك المسرة في مختلف الميادين، فاغتنت الثقافة المغربية بمكتبة زاخرة بالمصنفات في السيرة، وتفنن في نظمها⁴⁹، بل من العلماء من كتب في ناحية خاصة من نواحي السيرة، كأعلام النبوة، والمعجزات، والمعراج، والمغازي، والنعال، ونظام الحكومة النبوية، والأسماء المحمدية، وشيئته عليه السلام، وخضا به وشمائله، وأكله، ولباسه، أما عن مولده عليه السلام فحدث ولأخرج⁵⁰؛ فلعبد الرحمان بن زيدان "النور اللائح بمولد الرسول الخاتم الفاتح"⁵¹، ولأبي عبد الله محمد بن الشيخ جعفر الكتاني (ت 1345هـ) إسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الأنبياء وسيد الخلائق، "يحظى بنفس الاهتمام الذي تحظى به بردة البوصيري وهمزيته، ومن مظاهر هذا الاهتمام أن جمعا من العلماء ورجال المديح النبوي يحفظونه ويقرأونه في الحفلات المولدية وغيرها، اقتداء بالمشاركة الذين يهتمون بمولد الإمام البرزنجي رحمه الله، وترجموه إلى اللغة التركية، وعلى هذا المولد الكتاني اعتمد شطر من المؤلفين في المولد، وفيهم من أثبت فصوله بلفظها"⁵² وقد طبع عدة مرات بالمطبعة الحجرية الفاسية.

أما عن قصائد المديح النبوي المنظومة بهذه المناسبة فهي من الوفرة بمكان منها "اليمن الوافر الوافي في امتداح الجنب اليوسفي"⁰ كما شرحت قصائد ووضعت عليها الحواشي، ونسجت الموشحات والأزجال الخاصة بهذه المناسبة.

⁴⁹ - وعلى سبيل المثال فقد نظم العلامة أبو العباس أحمد سكيج (ت 1363 هـ) شفا القاضي عياض في أكثر من عشرة آلاف بيت، ولد أيضا نظم الخصائص الكبرى للسيوطي، مات قبل إتملمه، يشتمل على ثلاثين ألف بيت، انظر الهامش 1 من ص: 14 من كتاب روبات الجنات لمحمد الباقي الكتاني.

⁵⁰ - عبد الحي الكتاني: التأليف المولدية في ذكر ما كتب على خصوص المولد النبوي الشريف، وبيان أخذ بعضها عن بعض، وطبعة، والاتصال بها، مجلة الزيتونة التونسية في عدة أعداد ابتداء من شهر ربيع الأول 1356 هـ/ ماي 1937.

⁵¹ - طبع بتونس سنة 1331 هـ في 39 صفحة وتليه قصيدتان.

⁵² - محمد الباقي الكتاني: روضات الجنات في مولد خاتم الإرسالات، مطبعة الأمانة، الرباط 1975، ص: 21-22، وقد أحصى نحو من خمسين مولدا.

وفي فترة الحماية وظف المولد النبوي توظيفاً يجمع بين الديني والوطني أي يستجيب لتطلعات الحركة الوطنية بزعامة الملك محمد الخامس. فهذا المرحوم عبد الهادي بوطالب من الشهود والفاعلين في تلك الحقبة يقول: "في هذه المناسبة كانت منابر المساجد والزوايا التي قطعت علاقتها بأقطاب الطريقة، فمن على تلك المنابر كانت تلقى دروس في تفسير القرآن الكريم، وشرح الحديث، وشرح وقائع السيرة النبوية... وكانت دروس هؤلاء العلماء تأخذ شكل الحلقات العلمية الدينية المفتوحة على الطريقة التقليدية، لكن محاورها المستترة غالباً، أو الظاهرة حيناً كانت ذات طابع سياسي، هو حفز الجماهير لمقاومة المستعمر الجاثم على المغرب. كان يقود هذه الدروس علماء وشباب القرويين وابن يوسف⁵³."

وقد تنبه المستعمر إلى خطورة هذه الدروس المولدية، فعمد باشا مراكش ليلة المولد النبوي لعام 1356هـ/1937 إلى منع الاحتفال بهذه المناسبة، فأقدم جلاوزته على احتلال مساجد مدينة مراكش، ودخلوها بنعالهم، وأخرجوا منها المصلين تحت وطأة الحديد، ثم أغلقوها مدة أربعة أيام، وفي هذه الحادثة يقول الشاعر محمد بن اليماني الناصري (1891 - 1971):

ما بال مراكش تبكي وتنتخب في يوم عيد له الأعياد وتنتخب
ما بال مراكش باتت على مضض في ليلة العيد والأحشاء تضطرب
ما بال أمتنا ثارت عواطفها من مكن الدين حيث المعقل الأشب.
ثم يصف ما أقدم عليه باشا مراكش وخليفته البياز من احتلال المساجد وإخلائها من المصلين.

أتى المساجد مختالاً بشرطته يزهي بإقفالها إذا فتحها يجب
فهاج من ساكني الحمراء ساكنهم إذ في القلوب بهذا يقذف الرعب

⁵³ - عبد الهادي بوطالب: نكريات شهادات

في ليلة بولاد المصطفى شرفت على الليالي ومنها الخير يجتلب
في ليلة أصبح التاريخ يذكرها بما به، لا تتي الأشعار والخطب⁵⁴.

تلكم كانت نظرة مجملة عن موقف الفقهاء من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وقد ارتبطت تلك الأحكام بزمانها ومكانها وما احتف بها من الملابس، وقد أكدنا على إرجاع ذلك إلى المقاصد، وإلى ما يعترى الأحكام الاجتهادية من تغيرات بحسب الأوضاع التي لها علاقة لصيقة بنظرية المصالح المرسله. قال العلامة ابن عابدين في رسالة "نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف": "كثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان⁵⁵". وقال الشهاب القرافي في الفروق: "الجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين⁵⁶".

ولابن القيم فصل قيم عقده حول "تغير الفتوى واختلافها بحسب الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد⁵⁷".

وبعد الاطمئنان إلى الأخذ بالاحتفال بالمولد شرعيا، تتبعنا طرق استنبات هذه الاحتفالات في الغرب الإسلامي وتطورها تاريخيا؛ بدءا من العهد العزفي، فالموحدي، فالمريني، فالسعدي، وأخيرا العهد العلوي وقد لاحظنا طيلة هذه المتواليه من العهود ازدياد التحسينات وتأنق وأبهة هذه الاحتفالات، إلى أن انتهت إلى العهد العلوي الذي أربى على المتقدمين، وقد مس ذلك ازدهار مجالات الثقافة العالمه والشعبية، ناهيك عن الصنائع والفنون التي ارتبطت بالمناسبة؛ فأضفت عليها مزيدا من الروعة والجمال والجلال.

⁵⁴ - عبد الحق بن طوجة: شعر محمد بن اليميني الناصري بين الانتماء الوطني القومي، مجلة كلية اللغة العربية بمراكش،

ع4، ص: 132.

⁵⁵ - ابن عابدين: شر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف، ضمن مجموعة رسائل ابن عابدين، طبعة الأستاذة 1325

هـ، ص: 128.

⁵⁶ - الشهاب القرافي: الفروق، الفرق 28 المسألة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، دت. 177/1.

⁵⁷ - ابن القيم: أعلام الموقعين، الطبعة المنيرية، ج3، ص: 1.